

إشكالية المصطلح اللساني

تجربة عبد المالك مرتاض أنموذجا

د / صالح تقابجي

قسم اللغة العربية وآدابها

جامعة علي لونيسي - البليدة.2

ملخص:

إنّ للمصطلح السيميائي تأثيرات جمّة على الجانب الفكري والأدبي، فهو يشكل حلقة وصل بين اللسانيات والنقد، ومن المصطلحات التي شهدت رواجاً واسعاً في ساحة النقد العربي المعاصر، وتضاربت الآراء حول دلالاتها وتجدّد مفاهيمها؛ نجد: سمة - سيميائية - أيقونة - مؤشر - تناص - تشاكل - خطاب - شعرية - لغة اللغة - نقد النقد - قراءة القراءة - انزياح - تداولية..، وتعدّ هذه المصطلحات (كلمات / مفاتيح) يستعان بها في تحليل النصوص الأدبية وفكّ شفراتها، ومن أولى اهتمامات البحث اللساني توفير الإطار النظري، وتيسير الإجراء التطبيقي بوضع ضوابط وأسس دقيقة لتشكيل المصطلح الذي يمكن أن يعوّل عليه في حلّ الإشكال القائم في واقع الدراسات اللسانية العربية الرأهنة؛ فكثيراً ما تتغيّر المفاهيم من عصر إلى عصر، فيتغيّر المصطلح ويظلّ المفهوم كما هو، وبما أنّ اللغة العربية ليست شيئاً جامداً بعيدة عن التأثير والتأثر، بل هي ظاهرة اجتماعية تخضع لنواميس الترقية؛ فإنّ نظام الجملة وطرق الاشتقاق، وموازين الصّرف فيها تتفاعل مع المستجدّات، وتتحصّل فيها على المظاهر البلاغية في الجملة من تقديم وتأخير كغيرها من اللغات، ولكن يجب الاحتراز من المعنى الذي تؤدّيه هذه التّغيّرات..، ويعدّ الدّكتور عبد المالك مرتاض من أبرز الباحثين العرب في هذا المجال، حيث عمل على تطويع المصطلحات الغربية الحديثة، وحاول أن يجد ما يقابلها في لغتنا العربية موظّفاً كلّ إمكانيّاته اللّغوية، علاوة على تشبّعه من منابع التّراث العربيّ الأصيل،

كما استعان بخبرته النّقدية، ومعرفته للثقافة الغربيّة، وإتقانه للغة الفرنسيّة، ومن هذا المنظور الفكريّ الواسع وقف الباحث على بعض المفاهيم السّيميائيّة ليضعها في مختبر المصطلحات اللّسانيّة.

Résumé:

Sur la base de cette étude, monsieur A. Mortadh pense que le terme de linguistique arabe en générale craignait d'affronter les concepts occidentaux contemporains.

Tout cela traduisant par l'émergence d'un mouvement de rejet qui incite les chercheurs à la théorie classique.

Cette opinion a poussé Mortadh à la recherche d'une méthode scientifique expliquant la théorie sémantique. Cette théorie convint le lecteur arabe à recevoir ces nouvelles tendances.

La problématique du terme linguistique à contrer beaucoup d'encre dans le domaine de la critique contemporaine. Tout cela nécessite de nos détracteurs de combiner entre le patrimoine arabe et la modernité occidentale pour qu'ils soient complémentaires et non contradictoires, puis ce que c'est la meilleure façon de préserver notre identité, et de nous protéger contre la dépendance intellectuelle.

مقدمة :

في ظلّ كثرة الحديث عن المصطلح اللّسانيّ العربيّ تظهر الحاجة إلى تبيان المعنى الإجماليّ لهذه المصطلحات وصحة توظيفها، ومدى ملائمتها لبنية

النص وطبيعته التي يركز عليها الدّارس للغة أو النّاقّد، حتّى لا تتوسّع الهوّية بينه وبين المبدع؛ لأنّ اللغة جزء من كيان الأمّة، فهي تمثّل أهمّ خصائص الهويّة الذاتيّة والانتماء الحضاريّ، ولهذا بقي الجدل قائماً بين اللّغويّين والنّقّاد العرب، لأنّ الخلاف يدور حول المصطلحات النّقديّة، وقد ازداد تشعباً في ظلّ النّظريّات اللّسانيّاتيّة الحديثة، واستقطاب الآليات الإجرائيّة المستعملة في الغرب لتحليل النّصوص الأدبيّة؛ والتي تستند إلى منهج علميّ في معظمها، ممّا قد يتعارض في بعض جوانبه مع مفهوم النّقْد العربيّ باعتباره أدبا وصفياً مبنيّا على الدّوق السّليم، "وقدرة التّمييز الفطريّة" - كما وصفه نعيمة في غرباله - ..، حيث توالّت المصطلحات الغربيّة بالوفود إلى السّاحة الأدبيّة العربيّة على شاكلة اللّسانيّات، والتّفكيكيّة، والسّيميائيّات، والتّأويل، والتّناص، والسّرد، وغيرها..، إلّا أنّها بقيت تدور في فلك لم يستقم بعد.

وظلّ الجدل قائماً حول تحديد الصّيغة المصطلحيّة المناسبة للبديل الغربيّ مع المحافظة على الدّلالة ذاتها، فقد شهد النّقْد العربيّ هذا التّدخل في كفيّة صياغة المصطلحات "منذ قدوم النّظريّات اللّسانيّة الغربيّة، وبالضّبط منذ أن استلهمت الحداثة العربيّة أدواتها الإجرائيّة من المنجز الغربيّ، وأصبح نشاط الباحثين العرب في هذا النّوع من الدّراسات ضرباً من الفوضى الثقافيّة؛ فقد حاول بعضهم التّأصيل لما يرونو إليه بالعودة إلى التّراث العربيّ لإبراز جوانبه الحداثيّة"¹، وهذا ما يضعنا أمام إشكاليّة صياغة المصطلح اللّسانيّ العربيّ المعاصر؛ فهل نستخدم المناهج النّقديّة الغربيّة بمصطلحيّتها، وآلياتها الإجرائيّة بفكر عربيّ؟ أم نحاول التّأصيل لما هو متداول في ساحتنا النّقديّة استناداً إلى ما وصل إليه قدماءنا من نظريّات؟ وإذا كان الأمر كذلك، فما هو السّبيل إذا لتوظيف التّراث العربيّ في قالب عصريّ في ظلّ وسطيّة ثقافيّة بما أنّ النّقْد العربيّ المعاصر يتخبّط بين غياب صيغة مصطلحيّة موحّدة من جهة، وبين ترجمة هذه المصطلحات، أو نقلها من المدارس الفكريّة الغربيّة من جهة أخرى؟.

توطئة:

لقد ساد في السّاحة النّقديّة العربيّة المعاصرة صراع المفاهيم، وسجال المصطلحات في ظلّ الاستهلاك الاصطلاحيّ الوافد من الغرب؛ فحين ينقل الباحثون العرب تلك المصطلحات في عزلة عن خلفياتها الفكرية والفلسفية، فإنّها تفرغ من دلالتها وتفقد القدرة على تحديد المعنى المناسب، وإذا نقلت بعوالقها الفلسفية أدّت إلى الفوضى والاضطراب، إذ أنّ القيم المعرفية القادمة مع المصطلح تختلف، بل تتعارض أحيانا مع القيم المعرفية التي طوّرها الفكر العربيّ المختلف؛ فمعظم المناهج النّقديّة الحديثة والمعاصرة "موروث بعضها عن بعض، وقائم بعضها على أنقاض بعض، فلا تستطيع إحداهن أن تزعم أنّها ناشئة من عدم، وأنّ أدواتها التقنية ومصطلحاتها المفهوماتية جديدة؛ فاللّسانيات قامت على جهود النّحاة وفقهاء اللّغة، وحتّى المعجميين، كما أنّ الأسلوبية قامت على أنقاض البلاغة، ولم تقم البنيوية إلّا على جهود الشّكلانيين الرّوس وجهود (دي سوسير)؛ وأمّا السّيميائية فهي خليط من اللّسانيات والنّحويّات والبلاغيّات" ².

ومن سمات اللّغة العربيّة أنّها لغة مرنة يمكنها أن تتفاعل مع أيّ لغة، خصوصا في مسألة استيعاب المصطلحات في شتّى مناحي الحياة، ولا سيما في النّقد الأدبيّ؛ إذ استطاع النّقاد العرب أن يجدوا لأنفسهم مصطلحات نقدية مناسبة للفترة الزّمنية التي عاشوا فيها، وذلك باعتمادهم على الآليات المعهودة في هذا المجال؛ كالاشتقاق والنّحت، والتّعريب والتّرجمة، والإحياء والمجاز، وهي عوامل مشتركة بين اللّغويين والنّقاد العرب، سواء القدامى أم المحدثين؛ "ولعلّها المعوِّض عن الجهود الفرديّة أو الإقليميّة، كما هو التّباين الناشئ حاليا بين المشاركة والمغاربة، ممّا أفرز إشكاليّة تعدّد المصطلحات التي تؤدي الدّلالة نفسها؛ وهذا راجع لعشوائية في النّشاط التّرجميّ بالخصوص" ³، علاوة على تعدّد الآراء، واختلاف وجهات النّظر الناتجة عن الصّراعات الفكرية بسبب التّبعيّة للفكر الغربيّ التي يعيشها الفكر العربيّ.

ونتطرق في هذا البحث إلى الطرق المعتمدة في وضع المصطلح اللساني من خلال جهود عبد المالك مرتاض في تأصيل المصطلح، وهي مهمة ليست باليسيرة؛ لأنها تتطلب التمكن من المادة اللغوية وفقها، والإلمام بالجانب التاريخي، ومسايرة النشاط العلمي المعاصر، فقد أصبحت اللغة العربية لغة اصطلاحية حديثة؛ وذلك بالاعتماد على الآليات المناسبة لصياغة المصطلحات، وهي وسائل ضرورية لإثراء اللغة وعصرنتها، بحيث تمكنها من مواكبة الحركة الفكرية والثقافية في العالم، فهو - بمسعا هذا، والمتعلق بفتح النص على عدة قراءات- يستند إلى التراث العربي لعلمه بأن "العرب من الأمم التي عملت على فتح النص وعطائته، بحيث نلفيهم يولعون إيلاعا شديداً ببعض النصوص؛ كما حدث مثلاً لشعر المتنبي الذي وصلنا من التراث أكثر من ثلاثين قراءة، أشهرها قراءة ابن الأثير، وابن سيده..."⁴، فمثل هذه الدراسات في رأي الباحث لا تعني "بلغة عصرنا إلا بجمعانية القراءة أو تعدديتها، حيث أن كل قراءة تمثل وجهة نظر معينة؛ فهذه قراءة نحوية، وتلك قراءة لغوية، وثالثة أسلوبية، وأخرى تترع مترعا آخر..."⁵، كما تساءل الباحث عن "قابلية المصطلح السيميائي للاندماج في حقل معرفي معين وخاص، أو إمكانية انتشاره خارج هذا الحقل، وملامسه حقول معرفية أخرى؟"⁶؛ وبغية تجاوز هذه الإشكالية وظف جل ما تتيحه اللغة العربية من آليات إجرائية لصياغة المصطلح.

ومن محاولاته في هذا المجال عمل على معالجة إشكالية ترجمة السوابق (Les préfixes) و(اللاحق Les suffixes) ، التي تقتصر إليها اللغة العربية في مقابل اللغات الأوروبية - باعتبارها لغات إلصاقية- ؛ إذ يقول: "ومن عجب السيميائيين العرب يعكسون هذا الاستعمال بالقياس إلى مفهوم سيميائي آخر فتراهم يقولون (التناص) مثلاً مقابلاً للاستعمال الغربي (Intertextualité) ، في حين كان يجب في الحقيقة أن يقولوا: (التناصية)؛ وإذن فهم يصطنعون (التداولية) في مكان (التداول)، ويصطنعون (التناص) في مكان (التناصية)"⁷، ولتجاوز هذه الإشكالية حاول عبد المالك مرتاض توضيح الكيفية التي يترجم

بها المفاهيم بإضافة اللاحقة (ية)، أو عدم إلصاقها بالمصطلح كما فعل في ترجمته للمفهومين الغربيين (pragmatisme - pragmatique)؛ حيث " أطلق على مقابل المفهوم الأول 'التداول' (أي تداول اللغة) - دون لاحقة (ية)- وعلى المفهوم الآخر المنصرف إلى النزعة المذهبية 'التداولية'، وذلك حتى يطوِّع العربية من أجل أن تتقبَّل المفاهيم بالدقَّة المطلوبة، فتميِّز بين الدلالات المتقاربة في لغتنا المعاصرة" ⁸.

1- صياغة المصطلح وفق آلية الاشتقاق :

يعدُّ الاشتقاق من أهمِّ الآليات اللغوية المستعملة في صياغة المصطلح، فقد استعان به اللغويون والنقاد لإثراء المعجم العربي، وخاصة في مجال النقد السيميائي الذي ينتابه الغموض، واتَّسم بإشكالية الاصطلاح منذ ولوجه إلى ساحة النقد العربي المعاصر، فقد بذل نقادنا المعاصرون قصارى جهدهم (سواء على مستوى الأفراد أو الجماعات أو الهيئات) لإيجاد المصطلح السيميائي المناسب بتوظيف آلية الاشتقاق بالرغم من اختلافهم في تحديد صيغة موحدة للمصطلح، وضبط دلالاته؛ ومن تلك الجهود نذكر:

- مصطلح شعريَّة : poétique

تتداخل دلالة هذا المفهوم كغيره من المصطلحات السيميائية، فمن النقاد من يرى أنَّه مستتبطن من اللغة العربية عن طريق آلية الاشتقاق، أي من مادة (ش ع ر)؛ كما قال عبد السلام المسدي: " فهذا الجذر الثلاثي في دلالاته حول كلِّ ما له ارتباط بالحسِّ من حيث هو خامس خمسة لم نجد ما نعبر به عنها إلا لفظة الحواس ذاتها؛ ولا ينفكُّ عن هذا المعنى التأثيلي ما تدلُّ عليه المادة اللغوية في جدولها الكبيرين، بأيّ تقليب من تقليبات الوزن الصرِّي في أخذتها" ⁹، ولم يعرف العرب هذا اللفظ (شعريَّة)، وإنَّما تداول عندهم مصطلحات أخرى "تدلُّ على شاعريَّة الشَّاعر، ومنها: الشَّاعريَّة، شعر الشَّاعر، القول الشعري.." ¹⁰، ولفظ شعريَّة في النقد المعاصر ربَّما يحمل دلالة معرفيَّة؛ لأنَّ "اختيار هذا اللفظ كبديل مقابل (poétique)، يتولَّد مفهوم دالٌّ على الإطار العام الذي ينزل فيه

الأدب، فقد ظلت اللائحة الاشتقاقية قائمة مقام لفظ العلم؛ كما لو كان هذا اللفظ يتّجه صوب تخصيص السّمة الإبداعية بصاحبها" ^{1 1}.

2- صياغة المصطلح وفق آلية النّحت :

ويعتبر النّحت إجراء عملياً لتوليد المصطلح في اللغة العربية، فقد استخدم قديماً وحديثاً لنقل ما استجدّ من مفاهيم معرفية لدى الأمم الأخرى، وباتّباع الأسلوب الجديد لآلية النّحت (الأقرب إلى مفهوم التّركيب في اللّغات الأجنبية- خاصة الفرنسية والإنجليزية-) استطاع النّقاد العرب المعاصرون أن يوجدوا بعض المصطلحات السّيميائية؛ مثل: لغة اللّغة، ميطالسانية، نقد النّقد، نقد - نقد النّقد، قراءة القراءة، قراءة - قراءة القراءة، الزّمكان.. ، وغيرها من المصطلحات.

3 - تعريب المصطلح اللّسانيّ :

لقد تعامل النّقاد العرب المعاصرون مع هذه الآلية بشكل أوسع من الآليات الأخرى، فاستخدموها في تعريب المصطلحات الغربية بداية بالمفاهيم اللّسانية؛ مثل: فونيم (phonème)، ومونيم (monème)، ومورفيم (morphème) وغيرها، وفي الدّرس السّيميائيّ حاولوا تعريب عدّة مفاهيم غربية في هذا المجال؛ وأهمّها: (Sémiologie)، حيث عربّ هذا اللفظ بعدة مصطلحات، منها: سيميولوجي، سيميولوجيا، وغيرها، وهناك بعض المصطلحات المعربة تجاوزت مرحلة اللفظ الدّخيل، واندمجت في سياق الألفاظ العربية حتّى أنّ السّامع يظنّها كذلك، وهي في الواقع من أصول غربية؛ ومنها: مصطلح أيقونة (Icône).

4 - ترجمة المصطلح اللّسانيّ:

تعدّ التّرجمة رافداً مهماً، وعاملاً أساسياً لنهضة الأمّة؛ لأنّها تساعد على رصد كلّ ما استحدث لدى الأمم الأخرى، ومسايرة التّطوّر الحضاريّ، فمنذ نشأة النّقد الحديث عرفت اللغة العربية مصطلحات جديدة عن طريق تفعيل آلية التّرجمة؛ ومنها: التّشاكل (isotopie)، حيث شهد هذا المفهوم

تداخلا في الاصطلاح، فظهرت ألفاظ أخرى بصيغ مختلفة، ولها الدلالة ذاتها؛ كلفظ المشاكلة، كما عرّبه بعض النقاد بلفظ (ازوتوبيا)، وترجم مصطلح (poétique) بعدة كلمات عربيّة، منها: الشعريّة، الإنشائيّة، الشاعريّة، علم الأدب، الفنّ الإبداعيّ، فنّ النّظم، فنّ الشعر، نظريّة الشعر؛ كما عرّب ببعض الألفاظ (البيوطيقا، البويتيك،...)، أمّا مصطلح (Sème)، فقد ترجم بعدة ألفاظ في اللغة العربيّة، منها: معنم، سمة، نواة دلاليّة...، وغيرها من المصطلحات.

5 - الإحياء :

من الممكن توظيف التّراث ونتاجه المعرفيّ (الجدير بالخلود) في قالب عصريّ لخدمة حياتنا الثقافيّة، وتوجّهاتنا الفكرية التي تتركز أساسا على الإرث التاريخيّ؛ لذلك تقتضي عمليّة تأسيس المصطلح النّقديّ العربيّ ضرورة العودة إلى منابع التّراث المضيء خاصّة وأنّ المصطلح النّقديّ العربيّ المعاصر يعرف إشكاليّة غياب الصّيغة الاصطلاحيّة من جهة، وترجمة هذه المصطلحات، أو نقلها من المدارس الفكرية الغربيّة من جهة أخرى؟

1/5 - إحياء المصطلح التّراثيّ :

وتتمثّل هذه الآلية الإجرائيّة في "ابتعاث اللفظ القديم، ومحاكاة معناه الموروث بمعنى حديث يضاهيه"^{1 2}، وغالبا ما يلجأ اللّغويّون والنّقاد العرب إلى هذه الخاصيّة (إحياء التّراث) باستقراء الكنوز التي خلفها علماؤنا القدامى؛ لكسب مصطلحات معرفيّة واستخدامها للتعبير عن المفاهيم الجديدة، ولو عدنا إلى التّراث العربيّ لوجدنا الكثير من الاصطلاحات الرّائعة في مجال الدّرس اللّسانيّ العربيّ الحديث قد تناولها علماؤنا القدامى بالدّراسة والبحث، وخصّصوا لها مؤلفات تحمل في طياتها تعريفات وتحاليل بمنهجية العصور السّالفة؛ ومن المصطلحات اللّسانية التي شاعت عند العرب قديما، نجد: النّحو، علم اللّغة، فقه اللّغة، البلاغة، وغيرها، ومن الملاحظ في كتب التّراث العربيّ الخاصّة بالدّراسات اللّغويّة أنّ العلماء القدامى اعتبروا (النّحو)، و(العربيّة)

مصطلحين مترادفين، ويؤيدان الدلالة نفسها؛ كما في قول ابن سلام الجمحي: "وكان أول من أسس العربية، وفتح أبوابها، وأنهج سبيلها، ووضّح قياسها: أبو الأسود الدؤلي" ¹³.

ومن المصطلحات التي تداخلت مفاهيمها عند العرب (اللغة)، و(علم اللغة)، و(فقه اللغة)، حيث اشتركت في دلالاتها على نوع معين من البحث اللساني، وتردّت هذه الظاهرة عبر تاريخ الدرس اللغوي العربي قديماً وحديثاً؛ فكان يطلق مصطلح (لغوي) على من يقوم بجمع مفردات اللغة، ورواية ما يحفظ عن العرب؛ كالأصمعيّ مثلاً، كما في قول السيوطي: "اعلم أنّ اللغويّ شأنه أن ينقل ما نطقت به العرب ولا يتعدّاه، وأمّا النحويّ فشأنه أن يتصرف فيما ينقله اللغويّ وقيس عليه" ¹⁴؛ وهو المصطلح نفسه (لغوي) ما يطلق حديثاً على كلّ من يبحث في المجال اللغويّ.

ويبدو أنّ هذه الطريقة (إحياء التّراث) لم تلق استحسان بعض النّقاد المعاصرين على غرار ما ذكره الفاسي الفهري، بأنّه يجب "الابتعاد عن استعمال المصطلح المتوفّر القديم في مقابل المصطلح الدّاخل؛ لأنّ توظيف المصطلح القديم لنقل مفاهيم جديدة من شأنه أن يفسد علينا تمثيل المفاهيم الواردة، والمفاهيم المحليّة على حدّ سواء، ولا يمكن إعادة تعريف المصطلح القديم، وتخصيصه إذا كان موظفاً" ¹⁵، بينما شهد هذا الإجراء استحسان ثلّة أخرى من الباحثين العرب المعاصرين على غرار الدّكتور عبد المالك مرتاض، الذي استطاع أن يبعث الكثير من المصطلحات التّراثيّة، وجعلها كمقابلات للمفاهيم الغربيّة الحديثة؛ وخاصّة في مجال النّقد السّيميائيّ؛ كلفظ "خطاب" الذي جعله بديلاً لمصطلح (Discours) ¹⁶، كما اكتشف عبد المالك مرتاض أنّ النّقاد العرب القدامى حينما خاضوا في مسألة السّرقات الأدبيّة مثلاً إنّما كانوا يخوضون في نظريّة التّناصيّة (Intertextualité) دون أن يدروا أنّهم يخوضون في ذلك، وهنا نلاحظ أنّ الباحث أراد بهذا الملفوظ أن يؤكّد على أنّ أصل نظريّة (التّناصيّة)

عربيّ قديم، فدلالة مفهوم (السَّرقات الأدبيّة) هو ذلك ما توحى به لفظة (التَّناسيّة).

2/5- المصطلح اللّسانيّ في التّراث :

يعتبر إحياء التّراث آليّة إجرائيّة فعّالة، لأنّها تساعد على إيجاد عدّة مصطلحات نقدية ممّا قد يساهم في حلّ الإشكال المطروح في هذا المجال؛ ومن المصطلحات الحديثة التي لها جذور في تراثنا العربيّ من حيث الصّيغة والدّلالة معا، نجد:

- مصطلح Linguistique :

فقد توالى الدّراسات اللّغويّة حديثاً في هذا المجال، وحاول كلّ باحث أن يجد بديلاً مناسباً لهذا المصطلح الغربيّ الحديث، "فارتضى مجمع اللّغة العربيّة المصطلح القديم (علم اللّغة)، واشتغل بعضهم تحت لواء الاصطلاح الأحدث؛ وهو الألسنيّة أو اللّسانيّات أو علم اللّسان الحديث، وجعلوه مقابلاً لهذا الوافد الجديد (Linguistique)"¹⁷؛ فقد استعمل لفظ اللّسان (بوصفه العنصر الأساسيّ في جهاز النّطق البشريّ) بمعنى اللّغة في القرآن الكريم؛ كما ورد في تفسير الجلالين¹⁸، قال تعالى: {ولقد نعلم أنّهم يقولون إنّما يعلمه بشر لسان الذي يلحدون إليه أعجميّ وهذا لسان عربيّ مبين}¹⁹، ولسان العرب (عنوان لمعجم من أضخم المعاجم العربيّة، وأوسعها انتشاراً)²⁰، وفيه يقول صاحبه: "اللسان اللّغة...، وحكى أبو عمرو لكلّ قوم لسان، أي لغة يتكلّمون بها...؛ وقد أتى بمعنى الكلام في قول الحطيئة:

ندمت على لسان فات مني فليت بأنّه في جوف عكم"²¹.

واستخدم ابن سيده (ت 458 هـ) مصطلح علم اللّسان، وحدّد له مفهوماً يبدو أقرب إلى مفهومه الحديث، حيث قال: "هو علم يقوم على الإحاطة بمفردات اللّغة ومعرفة دلالتها، ومعرفة قواعد اللّغة التي تتعلّق بالمفردات من قبيل اشتقاقها وصيغة بنائها، وما يطرأ على بنيتها من تطوُّرات صوتيّة، أو تغييرات تقتضيها قوانين اللّغة المعيّنة"²²، وأمّا ابن خلدون (ت 808 هـ)، فقد

استعمل مصطلح علم اللسان، وتوسّع في مفهومه؛ حيث حدّد له أربعة أركان، بقوله: "إنّ لعلوم اللسان العربيّ أركاناً أربعة، هي اللغة والنحو والبيان والأدب" ²³.

وقد أوجد العالم اللغويّ (دي سوسير) (F. De Saussure) هذا المصطلح في بداية القرن العشرين؛ وهو "لاتينيّ الأصل من (lingua)، وتعني (langue)، أي لسان" ²⁴؛ ممّا يدلّ على توافقه مع الاصطلاح العربيّ، حيث قال عبد الصّبّور شاهين: "كما فعل دي سوسير حين أطلق مصطلح (la langue) - ويعني في العربيّة اللسان - على تلك الصّورة من النّشاط اللّغويّ ذات القواعد والقوانين" ²⁵، وقد أوجز في تعريف هذا العلم بأنّه: "دراسة اللّغة لذاتها، ومن أجل ذاتها" ²⁶؛ فهو دراسة علميّة وتاريخيّة ومقارنة للغات البشر، أمّا الدّكتور عبد المالك مرتاض، فقد نظر إلى هذا المصطلح من زاوية أخرى؛ حيث يقول: "نحن نميّز بين مصطلحيّ اللّسانيّ واللّسانيّاتيّ؛ الأوّل نسبة إلى مجرد اللسان (langue)، والآخر نسبة إلى علم الألسنة، أي اللّسانيّات linguistique؛ كما يجب التّمييز بين الرّياضيّاتيّ نسبة إلى الرّياضيّات نسبة مباشرة، كنسبتنا إلى النّحو، فنقول 'نحويّ' (عالم النّحو)، وبين الرّياضيّ نسبة إلى الرّياضة، أم يود النّاس أن يخلطوا بين المفاهيم" ²⁷.

ورغم الجهود المبذولة من أجل إحياء التّراث الفكريّ والثّقافيّ العربيّ، فإنّه لا زال هناك الكثير من الكنوز المعرفيّة - المدخّرة منها، والمهملة التي لم يكشف عنها بعد - تحتاج إلى بحث وتنقيب، ودراسة معمّقة كي تبعث من جديد؛ ومن بين المصطلحات السّيميائيّة التي أوجدها النّقاد العرب المعاصرون بتوظيف هذه الآلية - إحياء التّراث - نجد :

- **المشاكلة** : هي من مصطلحات البلاغة العربيّة القديمة، "وهي أن يذكر الشّيء بلفظ غيره لوقوعه في صحبته، كقوله تعالى: { ولا تكونوا كالذين نسوا الله فأنساهم أنفسهم أولئك هم الفاسقون }؛ أي أهملهم، فذكر

الإهمال هنا لفظ النسيان لوقوعه في صحبته "28"، وقد ذكر " شعر لأبي الرّقمع قال فيه:

أصحابنا قصدوا الصّبوح بسحرة وأتى رسولهم إلي خصيصا

قالوا اقترح شيئا نجد لك طبخة قلت اطبخوا لي جبة وقميصا

أي خيطوا لي جبة وقميصا، فذكر الخياطة بلفظ الطبخ لوقوعه في صحبة طبخ الطّعام لأنّه كان فقيرا، ليس له كسوة تقيه من البرد "29".

وفي الدرس السيميائي جعل لفظ (المشاكلة) كبديل للمصطلح الغربيّ (Isotopie)، كما وضعت بجوار هذا اللفظ (المشاكلة) كلمات أخرى على سبيل التّرادف، منها: "التّشاكل" 30.

6- توليد المصطلح اللّسانيّ عن طريق المجاز :

يعتبر المجاز وسيلة هامة تستخدم من أجل توسيع المعنى اللّغويّ للكلمة، وتحميلها معنى جديدا، فقد لجأ النّقاد إلى هذه الآلية لإثراء اللّغة، حيث شهدت المصطلحات النّقدية السيميائية ضروبا من الألفاظ المجازية؛ نذكر منها: (الانزياح) كلفظ بديل عن المصطلح الأجنبيّ (Ecart)، والذي " سمي الفارق، والانحراف، والبعد، والفجوة؛ وهي كلمات في أصولها اللّغوية مختلفة، لأنّ الفارق = بون، والانحراف = زيغ، والبعد = جفاء، والبعيد = ناء، والفجوة = شرح، أمّا الانزياح فهو المصطلح الأقرب إلى العدول، ولكن المصطلحات السالفة الذّكر تعتبر مقبولة مجازيا "31، وفي خضم هذا الجدل القائم بين النّقاد في تناولهم " للمصطلح السيميائيّ مجازا، فأشاروا إلى الوجد الألسنيّ، والسلم الصوّتيّ، والماء الشعريّ، والتّقويضية، والمفتاح السّرديّ...؛ وغدت هذه المصطلحات موظّفة توظيفا مكرّرا في كتاباتهم بديلة عن المصطلحات التّالية: الجملة المفوّهة (الوحدة الكلامية)، التّفاوت اللّغويّ، العناصر الأدبيّة الجماليّة، التّفكيكيّة، ثمّ حلّت العقدة في النصّ القصصيّ "32.

- جهود عبد المالك مرتاض في صياغة المصطلح السيميائيّ :

- مصطلح (سيميائية) (Sémiologie) :

دخل الباحث عبد المالك مرتاض معتركا معرفيًا في مجال المصطلح السيميائي يتعلّق باللفظ 'سيميائية'، فقد عرف هذا المصطلح اضطرابا في وضعه كمصطلح لسانياتي واضح الدلالة، سواء في اللغة الفرنسية، أو في اللغات المترجم إليها؛ ومن أبرز ما ورد في المعاجم السيميائية، نذكر³³ : sémiotique, sémiologie, sémasiologie, séméiologie ؛ وهو ما يعني: "علم يدرس العلامات وأنظمتها ضمن الحياة الاجتماعية (لغات طبيعية، نظام العلامات، الشفّرات، الرّموز،...)؛ واللفظ مركّب من (logie)، و(sémio)، أمّا العالم اللغويّ (سوسير)، فقد أدخل مصطلح (السيميولوجيا) في اللسانيات الحديثة، وأعطى مثالا على ذلك: (أنظمة العلامات، الطقوس الشعائر الرّمزية، أبجدية الصّم البكم، عبارات اللبّاقة، إشارات عسكرية، واللغة نفسها في هذا السيّاق)"³⁴.

وفضّل الباحث عبد المالك مرتاض لفظ (سيميائية) بديلا لهذا المصطلح الغربيّ، فخطّ مؤلفا نقدياً عنوانه: "أي دراسة سيميائية تفكيكية لنصّ أين ليلاي.."، وكتاب آخر بعنوان: "ألف ليلة وليلة، تحليل سيميائيّ تفكيكي.."، وهو يرجع المصطلح إلى مادّة (وسم)؛ وتعني العلامة التي يعلم بها شيء ما، أو حيوان ما، ومن هذه المادّة جاء لفظ السيمياء، ولكنّه سرعان ما تراجع عن مصطلح "سيميائية"، وفضّل أن يكون "سيميائية" مبررا ذلك بقوله: "مصطلح السيميائية عربيّ وصحيح، جاء من (السيما) بمعنى العلامة، قال تعالى: { يوم يعرف المجرمون بسيماهم}، ثمّ أضيف إلى 'السيما' الثنائية العلمانية؛ وهي التي تعرف لدى عامّة النّاس بالياء الصناعيّة، فأصبحت دالّة على التّرفة، وهناك بعض النّقاد العرب الحداثيّين ممّن لا يحرصون على هذه الصّيغة العربيّة الصّحيحة، وسمّوها (السيميولوجيا) باستعمال المصطلح الغربيّ كما هو؛ على أنّ مصطلح (السيميائية)، أو (السيميولوجيا)، هو غير (السيميائيات) أو (السيميوتيك)"³⁵؛ حيث أشار إلى أوجه الاختلاف والتّشابه بين المصطلحين (سيميولوجيا)، و(سيميوتيك) مبديا الملاحظات التّالية:

- إن كلاهما يبتدئ بالسَّابِقة (sémio)، وهو آت من اللُّغة الإغريقيَّة (Semieon)، وتعني السَّمة (Signe)؛ ثمَّ يفترقان في كون أحدهما ينتهي باللاحقة (logie)، التي أصلها (logos)، وتعني الخطاب؛ في حين ينتهي الآخر بالمقطع (tique)، الذي يعني النِّسبة الدِّداكتيكيَّة (Didactique).

- إنَّهما اسمان بنيا على أصل الوضع الإغريقيّ لمسمى واحد فيه تسوية مفهوميَّة ذهب إليها (غريماس).

- ترتبط (السِّيميوتيكَا) أساسا بالثقافة الأنجلوساكسونيَّة (لوك - ويبرس) خصوصا، بينما يرتبط مفهوم (السِّيميولوجيا) بالثقافة الفرنسيَّة (غريماس، وبارت).

- إن مصطلح (السِّيميوتيكَا) أقدم وجودا، وأعرق ميلادا (1855م) من مصطلح (السِّيميولوجيا) الذي تداوله (سوسير) (1910م).

- إنَّ مفهوم السِّيميولوجيا يرتبط أساسا بعلم اللُّغة (اللِّسانيات)، بينما السِّيميوتيكَا بالفلسفة والمنطق.

عموما فالسِّيميولوجيا هي "علم يدرس نظام العلامات الدَّالة لسانيا"³⁶، حيث تشكِّل العلامة أو الإشارة جوهر إبداع الإنسان وتطوره، وبات يعتمد عليها كليًا في تطوُّره المعرفيِّ، وتنوُّعه الثقافيِّ؛ فمنها انطلق في اتجاه كسر قيود الوجود إلى آفاق أوسع عن طريق إبداعه لأشكال تعبيرية ورمزية تعينه على الكشف عمَّا بداخله، وأخذت العلامة تتطوَّر في تاريخنا البشريِّ كمحصَّلة لصيرورة تفاعل الذات مع الوجود، إلى أن أصبحت منظومة معقَّدة ومتشابكة نسعى من خلالها إلى توصيل معنى أدقِّ وأوضح عن حقيقة التَّواصل فيما بيننا من جهة، وبين الوجود من جهة أخرى.

ولم يستثمر عبد المالك مرتاض تقنية النَّحت بنسبة كبيرة في توليده للمصطلحات السِّيميائيَّة مقارنة لما فعله بالآليات اللغويَّة الأخرى؛ نظرا لما يشيع فيها من غرابة عن خصائص اللُّغة العربيَّة، ومن أمثلة ما اصطنع الباحث في هذا المجال؛ نذكر³⁷:

- لفظ (الجدلفة) الذي يقابل المصطلح الأجنبيّ (néologisme)، وتعني التجديد اللغويّ.

- مصطلح: " لغة اللّغة " (Métalangage)

يعدّ لفظ (Métalangage) من المصطلحات اللسانية الحديثة، وهو مركّب من مادّتين لغويّتين؛ هما: (Méta) التي تعني (ما بعد)، أو (ما وراء)، وهي عنصر نحويّ يحدّد (ما فوق اللّغة)، أمّا كلمة (langage)، فتعني اللّغة أو اللسان؛ وعليه فمصطلح (Métalangage) " هو أسلوب، ولغة تستعمل لوصف وشرح لغة أخرى طبيعيّة" ^{3 8}؛ لأنّ "السّابقة (Méta) في حقل العلوم الإنسانيّة تعني 'الانتماء والاحتواء'، وهي كلمة إغريقيّة تعني: ما يشمل اللّغة كمفهوم اصطنعه الفلاسفة الألمان في مدرسة ' فينا '، والأنسب حينئذ القول للمصطلح (لغة اللّغة)، أو (اللّغة الواصفة)، أو (اللّغة الجامعة)" ^{3 9}.

وفي هذا السياق تطرّق عبد المالك مرتاض إلى المصطلحات الأخرى، حيث حاول أن يجاري بها ما شاع عند الباحثين الغربيّين؛ مثل: (جاكوبسون Jakobson) الذي وضع مفهوم (Méta –Linguistique) - وهو اسم لوظيفة من الوظائف اللسانية التي حدّدها - انطلاقاً من رسم مخطط نظريّة التّواصل، أمّا الباحث (تودوروف) (Todorov)، فقد آثر مصطلح (Métalecture)، والذي ترجمه عبد المالك مرتاض بلفظ "قراءة القراءة"، ثمّ صاغ مصطلحاً آخر، وهو (قراءة - قراءة القراءة) ^{4 0} بديلاً للمصطلح الغربيّ (Méta- metacritique)، كمفهوم أقرب إلى (نقد - نقد النّقد).

ولمّا عاد عبد المالك مرتاض إلى التّراث العربيّ، أوجد مصطلح (لسان اللسان) على غرار (نحو النّحو)، ثمّ وضع الفرق بين مصطلح (لسان اللسان)، و(لغة اللّغة)؛ باعتبار أنّ "المصطلح الأوّل يعبر عن لغة خالصة، والثّاني محدّد في السيميائيات النظريّة مجرد وصف من الخارج بعيداً عن الأدبيّة" ^{4 1}.

- مصطلح أيقونة (Icône) :

بما أنّ السِّمِّيَّات تختصّ بدراسة العلامات وتصنيفها وتعليلها في مختلف مفاهيمها، فقد وظفت مصطلح 'أيقونة' (Icône) لتهريب المعنى من النص الأدبيّ؛ وهو مصطلح " ينحدر من أصل (Ikona) في اللغة الروسيّة، ظهر في سنة 1938م متجلبًا في رسومات زيتيّة دينيّة منجزة على ألواح خشبيّة في الكنائس الشرقيّة، التي كانت تملأ الجدران بالأيقونات، وبصوّر رجال نبلاء من الحجم الطبيعيّ"^{2 4}؛ وقد عرّفه عبد المالك مرتاض بأنّه: "مصطلح دينيّ مسيحيّ أصلا، ثمّ نقل إلى هذا المعنى السِّمِّيَّاتيّ؛ الذي يعني في أبسط ما يعني العلاقة التّشبيهيّة مع العالم الخارجيّ"^{3 4}، وقد عرّف عبد المالك مرتاض هذا المصطلح (أيقونة) بأنّه "انعكاس صورة على مرآة أو على صفحة ماء، وترك أثر في شيء آخر؛ مثل الآثار التي تذرّها الأقدام حين تمرّ على الثلج...، فكان للأيقونة مظهر من مظاهر التّصوّر القائم على الحركة الطّبيعيّة للأشياء"^{4 4}.

- مصطلح "تشاكل" (Isotopie) :

هو مفهوم من المفاهيم السِّمِّيَّاتيّة التي أدخلت في مجال النّقد المعاصر كآلية إجرائيّة، حيث استقدمه (غريماس) من حقول الفيزياء والكيمياء، كما وضّحه عبد المالك مرتاض، بقوله: "إنّ مصطلح (تشاكل) اسم مشتقّ منحوت في أصله من كلمتين إغريقيّتين؛ هما (ISO) التي تعني التّساوي، و(Topos) التي تعني المكان؛ ليصبح في الأخير الاسم يدلّ على المكان المتساوي، أو تساوي المكان، ثمّ أطلق للتّعبير على الحال في المكان، أي في مكان الكلام"^{5 4}، فدلالة هذا المصطلح عند (غريماس) تقترب من ازدواجيّة اصطلاحيّة؛ هي: (Isotopie)، و(Isomorphisme)؛ أي تشابه وتناظر"^{6 4}، فقد ارتضى عبد المالك مرتاض مصطلح (تشاكل)، كبديل عن مصطلح (غريماس) (Isotopie)، واستخدمه في مؤلفاته الخاصّة بمجال السِّمِّيَّات تنظيرا وتطبيقا؛ غير أنّه يؤثّر مصطلحات أخرى مستوحاة من التّراث، كلفظ (مشاكلة)، حيث يقول: "إنّ المشاكلة، أو التّشاكل فرع من فروع السِّمِّيَّات،

وغايتها تتمخض لخدمة الدلالة عبر الجملة، وبالتالي عبر النص، وبالتالي عبر الخطاب الأدبي؛ فهي إذن تستخدم في الكشف عن العلاقات الدلالية بواسطة الإجراءات التحليلية...، والتشاكل يتكوّن من مكررات itérativetés، أو متواترات عبر سلسلة تراكبيّ، كما يتألّف من أصناف سيميائية تحفظ للخطاب الملفوظ تناسقه" 47.

كما اهتدى الباحث إلى مصطلحات (تشاكل) و(مجانسة) مقتنيا آثار البلاغيين العرب القدامى، وأضاف تعريفاً آخر (للتشاكل)، وهو: "تشابه العلاقات الدلالية عبر وحدة ألسنية إمّا بالتكرار، أو بالتماثل، أو التعارض سطحا وعمقا، وسلبا وإيجابا" 48؛ كما حاول أن يصوغ مصطلحا آخر -عبر آلية التعريب- مقابلا للفظ (isotopie)، فسمّاه (إيزوطوبية)، ثمّ عاد مرّة أخرى إلى التراث، فاستخرج عدّة مفاهيم؛ مثل: "(الخبر والإنشاء، ثمّ الطباق والمقابلة)، كأسماء مثيلة للتباين (Hétéropie)" 49، فقد عرّف مصطلح (التباين) بقوله: "أمّا اللاتشاكل، فيقوم في هذا الكلام على أساس التأليف بين أطراف متناقضة، وهو ما يمكن أن نطلق عليه (التباين)" 50؛ ثمّ حاول استجلاء الفرق الموجود بين المصطلحين (التشاكل)، و(اللاتشاكل) أو (التباين)؛ فقال: "إذا كان التشاكل يرصد العلاقات المتقاربة، أو المتشابهة بين معاني نصّ من النصوص، ونسوج خطاب من الخطب؛ فإنّ التباين يرصد العلاقات المتافرة، أو المتناقضة المتعارضة التي تفضي فيما تفضي إليه في حقيقة الأمر، إلى تحديد الدلالة السيميائية للمعنى عبر انصهارها، أو أثناء انصهاره في مساحة النصّ المطروح للتحليل المجهرى، أو التشبيه به" 51.

- مصطلح (سمة) (signe) :

هو من صور الاضطراب الناتج عن اختلاف الرؤى حول المقابل العربيّ لمصطلح (signe) في الثقافة الغربية، وأصل هذا اللفظ لاتينيّ (Signun)، وهو مرادف للأمرة والعلامة؛ مثل: "علامة السحاب الداكن الدالة على المطر الوشيك، كما أنّ العلامات دالة على الأفكار" 52، حيث ترجم هذا المصطلح

بعده أَلفاظ عربيّة، منها: "الأَمارة -الدّلِيل-السّمة- العلامة...؛ فتبدو هذه المصطلحات مترادفة في وعي القارئ، وهي ليست كذلك البتة"⁵³؛ حيث يرى الدّكتور أحمد حساني أنّ "العلامة هي اللفظ الأشمل، والأنسب ليكون بديلاً مقابل مصطلح (Signe) بمعناه العامّ؛ لأنّه غير مشروط بخصوصية"⁵⁴، وحاول الباحث التّأصيل لما ذهب إليه بما يعضد رأيه في هذه المسألة، فذكر قول الجاحظ (ت 255هـ): " قد اجتلبوا أسماء وجعلوها علامات للتّفاهم"⁵⁵؛ كما استند على أقوال أخرى، منها قول عبد القاهر الجرجاني (ت 471هـ): "اللّغة تجري مجرى العلامات والسّمات، ولا معنى للعلامة والسّمة حتّى يحتمل الشّيء ما جعلت العلامة دليلاً عليه"⁵⁶.

وأثناء دراسة الباحث عبد المالك مرتاض لهذا المصطلح أجرى مقارنة لمصطلحات أخرى استعملت لدى البعض للدّلالة على مصطلح (Signe) - فمنهم من استعمل لفظ (العلامة)- ؛ ولكنّه فضّل كلمة (سمة) لأنّه رأى أنّها الأقرب للدّلالة على هذا المصطلح بدلاً من لفظة (علامة) التي تدلّ على مصطلح (marque)؛ وذلك لأنّه يعتبر "السّمة ظاهرة طبيعيّة تدرك بصفة مباشرة، فاللون الدّاكن الذي يسم وجه السّماء هو (سمة) أو(قرينة) لعاصفة وشيكة الحدوث؛ وعليه فالعنصر (أ) هنا هو السّحاب الدّاكن الذي يغطي السّماء، وهو حاضر أمّا العنصر(ب)، فهو المطر الوشيك الهطلان، وهو عنصر غائب؛ فيتحول بذلك السّحاب الدّاكن إلى سمة"⁵⁷.

ومما يلاحظ في هذا الشّرح أنّ عبد المالك مرتاض استعمل لفظة (قرينة) - وهو مقابل لمصطلح Indice - ، وكأنّه مفهوم معادل لمصطلح (سمة)؛ كما أضاف في مواضع أخرى مصطلحين آخرين للدّلالة ذاتها، وهما (مؤشّر) و(علميّة)، في حين أنّ (المؤشّر) على حدّ تعبير (بريتو) Preto : "هو حادث ملموس يتيح لنا معرفة شيء من حادث آخر خفي"⁵⁸؛ وبذلك يمكن القول: "إنّ الدّكتور عبد المالك مرتاض أراد أن يساوي بين مجموعة من المفاهيم من حيث

دالتها، وأهمّها (سمة- قرينة- مؤشّر- علميّة)، واعتبرها مصطلحات متباينة لسانياتياً، ومتشابهة مفهوميّاً" ⁵⁹.

- مفهوم الانزياح :

الانزياح أو ما يسمى بالانحراف "هو مصطلح سيميائيّ بديل عن لفظ (L'écart) في اللغة الفرنسيّة، وقد ترجمه بعض النّقاد المعاصرين بمصطلح (الفجوة) و(الابتعاد)" ⁶⁰، وأطلق عبد السّلام المسدي على هذا المفهوم مصطلح "(العدول) كما هو سائد في البلاغة العربيّة" ⁶¹؛ حيث وجد عبد المالك مرتاض أنّ هذه المصطلحات ما هي "إلا مترادفات لمفهوم واحد، وهي لا ترقى في دلالتها الأدبيّة والجماليّة، وحتىّ المعرفيّة إلى مستوى الاستعمال المتداول بين النّقاد السيميائيّين...؛ فمصطلح (الانزياح) ربّما يظلّ الأيسر بين النّاس، وهو الأسلم لغويّاً ومعرفيّاً" ⁶²، وفي كلّ هذه المصطلحات ما يدلّ على انحراف المتكلّم أو الكاتب عن المألوف المتداول في الاستعمال الأسلوبيّ إلى شيء آخر.

وفي خضم هذا التّداخل الاصطلاحيّ حول مفهوم الانزياح أضاف الباحث عبد المالك مرتاض لفظاً مماثلاً، وهو (الالتفات)؛ واستشهد بكلام الزّمخشري (ت528هـ) الذي تحدّث عن الالتفات وعرفّ وظيفته البلاغيّة، بقوله: "... ولأنّ الكلام إذا نقل من أسلوب إلى أسلوب كان ذلك أحسن تطرية لنشاط السّامع، وإيقاظاً للإصغاء إليه من إجراءاته على أسلوب واحد..." ⁶³، وقياساً على ما وجد في كتب التّراث العربيّ توصّل الباحث إلى أنّ الانزياح لا يقوم على مجردّ الاقتصار على المراوحة بين استعمال الضّمائر المختلفة داخل كلام واحد، ولكنّه تجاوز ذلك إلى التّوسع غير المحدود في التّعامل مع اللغة الأدبيّة في أسلوب الكلام.

ويبقى هذا المفهوم في غاية الغموض، و"هذا باعتراف(غريماس) و(كورتيس) اللّذان يزعمان أنّ هذا المفهوم ربّما قد جاء من إنتاج مستعملي اللغة انطلاقاً من تأمّلات (سوسير)" ⁶⁴؛ غير أنّ عبد المالك مرتاض اتّكأ على آراء (أوزوالد ديكر) و(جان ماري سشيفر)، فلاحظ أنّهما عالجا هذا المفهوم

بتفصيل ووضوح؛ لأنّهما تابعا دراستها لما هو شائع في آخر النظريّات السيميائيّة، حيث وجد أنّ للانزياح أنواع متعدّدة؛ أهمّها: "الانزياح البلاغيّ"، والانزياح النّحويّ، والانزياح الوصفيّ، والانزياح الأسلوبيّ البلاغيّ في أصله السيميائيّ الرّاهن" ^{6 5}؛ فالانزياح الأسلوبيّ له صلة "باستعمال اللّغة، وتوظيفها في جماليّة الإرسال ليس ضمن تركيب ألفاظ اللّغة في جمل فحسب، ولكن ضمن بناء الجمل نفسها في نسج الأسلوب الأدبيّ، والسّعي إلى تحصيله من الرّتبة والسّكون إلى الحركة والتّوتر" ^{6 6}.

والمعنى المعجميّ للانزياح: "هو فعل الخطاب الذي ينزاح عن المعيار، وهو الكلمة التي تخرق السّلك المتفق عليه في الاستعمال بين النّاس" ^{6 7}، والانزياح الأسلوبيّ Une stylistique de l'écart هو الذي "يعادل الأسلوب الأدبيّ الذي يتميّز بالخصوصيّة، ويتجانف عن المألوف المبتذل القائم على التّقليد، والمحاكاة ضمن نظام اللّغة العامّ في أيّ لسان من الألسن" ^{6 8}؛ فالانزياح هو صفة أسلوبيّة تجعل لغة الكاتب لغة ذات خصوصيّة في إطار النّظام العامّ للّسان الذي تنتمي إليه، فهو ما يكسر به الرّتبة الأسلوبيّة إذ يظهر تعبيراً ينزاح به عن المألوف، فيجعل القارئ يتطلّع إلى ما وراء هذا الخرق الذي وقع في المعيار اللّغويّ؛ وقد مثل الباحث عبد المالك مرتاض لما ذهب إليه بقول الحطيئة:

"دع المكارم لا ترحل لبغيّتها ، واقعد فإنّك أنت الطّاعم الكاسي!" ^{6 9}

فقد وقع توتير اللّغة حين قال الشّاعر: (واقعد فإنّك أنت الطّاعم الكاسي!)، حيث تمّ الخروج عن الدّلالة المعجميّة في نظامها المألوف في تصريف معانيها حين جعل الحطيئة مهجوه وكأّنه من كرمه وسخائه لم يزل يطعم النّاس ويقريهم؛ ولكن في حقيقة الأمر وتّر اللّغة بجعله لمعنى اسم الفاعل يستحيل إلى معنى اسم المفعول توسّعا وسخرية "فلم يعد النّحو بإجراءاته المحدودة قادرا على فعل شيء أمام هذه البلاغة الطافحة، فتوقّفت وظيفته لدى الإعراب الذي لا يعني هنا إعراب المعاني بأيّ وجه" ^{7 0}؛ بهذا الانزياح الأسلوبيّ استطاع الشّاعر أن ينتقل بالكلام من نظام اللّسان الصّارم إلى نظام اللّغة المفتوح، ومن

الدلالة المعجمية المتوازنة إلى الدلالة الأدبية؛ "وقد أصبح الانزياح في الأدب الجديد (وبخاصة الشعر المعاصر) ضرباً من ضروب توظيف المجازات التشخيصية، وإيقار دلالات اللغة الشعرية حتى تغتدي محمله بها تحميلاً" ⁷¹.

- مفهوم التداولية (Pragmatique) :

إنّ تداولية اللغة أدخلت ضمن الآليات الإجرائية في التحليل السيميائي بحيث إنّ الكلمة التي تقال يراد منها أكثر من معنى، وغالباً ما لا يراد بها إلاّ المعنى الوارد في ظاهر الكلام، أو يتّخذ الكلام الوارد على الأقل قابلية تأويلية لتوليد كلام مسكوت عنه، "فكأنّ مبدأ المسكوت عنه هو مفتاح التداولية اللغوية بالمفهوم المبسّط" ⁷²، فقد قام عبد المالك مرتاض في بداية بحثه بتأثيل هذا المفهوم (التداولية)، فوجد أنّه قد وظّف بعدّة استعمالات في الثقافة الغربية، ومنها: "قانونية" (وهو الاستعمال الأصل فيما يبدو)، ثمّ فلسفية منطقية ورياضياتية، ثمّ أخيراً لسانياتية (دلالية) وبلاغية (سياقية)، وسيميائية (تأويلية) ⁷³.

وقد نشأ هذا المفهوم في أمريكا الشمالية أواخر القرن التاسع عشر ميلاديّ من قبل الباحث (شارل بيرس)، ثمّ جاء بعده الباحث (وليام جيمس)، وطبّق هذا المبدأ على الديانة، ثمّ الفلسفة (نظرية الحقيقة)، وفي لسان العرب، فالتداول هو: التّحاور على شيء، وأخذه بالدول ⁷⁴؛ بحيث يتمّ التداول عليه، فكلّ مرّة يأخذه أحد من الآخر، وهو "تركيب لغويّ مستعمل في العاميّات العربية بوجه صحيح إلى يومنا هذا" ⁷⁵. كما لاحظ عبد المالك مرتاض أنّ "كتابات الغربيّين تهمل الإشارة إلى جهود العرب البلاغية، وغير البلاغية في حقل علوم اللغة إمّا جهلاً، وإمّا استخفافاً، وإمّا مكابرة وتجاهلاً" ⁷⁶؛ حيث رأى أنّ هذا المفهوم قد تناوله البلاغيّون العرب القدامى الذين "كانوا يجترئون بأنّ يطلقوا عليه 'السياق'...، أو ما في حكمه، أو ما يطلق عليه السّكاكي (ت 626 هـ) 'مقتضى الحال' ⁷⁷.

فالإجراءات التّداوليّة تعنى أساسا بفهم الجملة الواحدة من الكلام، فتبحث عن طبيعة وضعها انطلاقا من العناصر المعجميّة إلى المؤشرات النّظميّة، أو المعطيات السياقيّة؛ فقد تحدّث (رولان بارت) عن مسألة تداوليّة اللّغة وتحليل الخطاب، فرأى أنّ العبارات الطّليّة يمكن أن تتحوّل إلى عبارات خبريّة لكن دون أن تفقد طبيعتها الطّليّة؛ مثل قول قائل: (لا تدخّن)، فإنّ صيغتها تعني بلغة تأديبيّة 'يمنع التدخين'، أو هنا 'لا يدخّن أحد'؛ والصّيغتان الثّانية والثّالثة هما في الحقيقة تعكسان معنى الصّيغة الأولى "وهي صيغ يستعملها الباحث للتّأدب مع المخاطب، فعوض أن ينهّاه عن التدخين هو شخصيا (بطريقة الأمر، والنّهي) يعتمد إلى إخباره بأنّ التدخين حيث هو ممنوع" ⁷⁸، ومثل هذه الخاصيّة (التي تتمتّع بها هذه النّظريّة) تجعل منها أداة شديدة الفعاليّة لاستكشاف حقول من القراءة لا تنتهي.

خاتمة:

رغم كلّ الجهود المبذولة في هذا المجال، إلّا أنّ اللّغة العربيّة لم تستفد كليّا من تلك القدرات المتاحة لديها من أجل صياغة المصطلح، فالأمر لا يحتاج وقفات فرديّة فقط، بل إلى جهد يشترك فيه الجميع لاستنباط مصطلح نقديّ عربيّ أصيل، يتميّز بصيغة واحدة، ويّسم بدلالة واضحة؛ بحيث تكون له القدرة على مسايرة المعطيات الإبداعيّة المعاصرة، وقد يحدث ذلك إذا تعاظمت جهود النّقاد واللّغويّين العرب، بغرض الوصول إلى بلورة مصطلحات نقديّة لعلّها تكون المخلّص من التّبعية الثّقافيّة للغرب التي يعيشها المثقّف العربيّ عموما، إذ قاد الحركة النّقديّة في الجزائر مجموعة أساتذة جامعيّين مارسوا النّقْد من خلال أعمالهم الأكاديميّة، محاولين بذلك بسط المفاهيم النّقديّة المعاصرة وتطبيق آلياتها الإجرائيّة على النّصوص الأدبيّة؛ علاوة على جهود هؤلاء في معالجة إشكاليات المصطلح السّيميائيّ، على غرار ما فعله عبد المالك مرتاض،

ودافعهم في ذلك أنهم مطلعون عن كثر على الفكر السائد عند الغرب، وخصوصا الثقافة الفرنسية بحكم أنهم يتقنون اللغة الفرنسية أكثر من غيرهم، فأشكالية ضبط المصطلح النقدي هي من أولى اهتماماتهم، وخصوصا في تعاملهم مع الأدب الجزائري؛ الذي يعيش حالة تذبذب لكونه محصور بين ثلاثة أقطاب، وهي الثقافة الغربية وعلى رأسها الفرنسية، والمشرق العربي، والمغرب العربي؛ ومما يواجهه الناقد ابتداء هو إشكالية المنهج الذي يمارس من خلاله عملية النقد بتطبيق الآليات الإجرائية، فيجب أن يكون هذا الناقد على علم بالمفاهيم الدخيلة نظرا لما تحمله من قيم الآخر، حتى لا يميع قيمه الذاتية، ولا يساعد على فرض التبعية الفكرية للغرب؛ وقد يحدث ذلك من خلال غزو المصطلحات اللسانية والسميائية، لأنها تحمل في مضمونها شحنات معرفية وعقائدية مرتبطة بأبعاد الثقافة التي أوجدتها.

وفي نهاية هذا البحث نخلص إلى عرض أهم الآليات الإجرائية التي تساعدنا على إيجاد مصطلحات بديلة عن المفاهيم الغربية المعاصرة، وحل الإشكال المطروح بخصوص هذا الموضوع؛ فهي وسائل ضرورية لإثراء اللغة العربية وعصرنتها، حيث استنتجنا النقاط التالية :

- اشتقاق ألفاظ جديدة من أصول عربية، أو معربة.
- تضمين الكلمة العربية معنى جديدا غير معناها السابق.
- تعريب كلمات أجنبية، واعتمادها بشكل رسمي في كل المجالات المعرفية.
- البحث في التراث العربي عن مصطلحات مناسبة للاستعمال الحديث للغة، وإعادة بعثها من جديد.
- تحميل الكلمات العربية المألوفة معاني جديدة بإطلاق ألفاظ مجازية عليها.

- 1 - ينظر عبد العزيز حمودة، المرايا المحدّبة.
- 2 - ينظر عبد المالك مرتاض، مجلة سيميائيات.
- 3 - صالح بلعيد، محاضرات في قضايا اللغة العربية، دار الهدى، الجزائر، 1999م، ص : 15.
- 4 - المرجع السابق نفسه ، ص : 145 .
- 5 - المرجع نفسه ، ص : 146 .
- 6 - قادة عفاق، هاجس التأصيل النقدي لدى عبد المالك مرتاض، مجلة نزوى .
- 7 - عبد المالك مرتاض، مفاهيم سيميائية بمصطلحات بلاغية، مجلة سيميائيات، م س ، ص : 18 .
- 8 - المرجع السابق ، ص : 13.
- 9 - ينظر عبد السلام المسدي، الازدواج والمماثلة في المصطلح النقدي- النموذج ، الشعرية والسيميائية، ص: 36 .
- 10 - ابن سلام الجمحي، طبقات فحول الشعراء ، ج1/ ص: 97 .
- 11 - ينظر مولاي علي بوخاتم، المصطلح والمصطلحية الجهود والطرائقية، ص: 110 .
- 12 - عبد السلام المسدي ، الازدواج والمماثلة في المصطلح النقدي ، ص : 44 .
- 13 - ابن سلام الجمحي ، طبقات فحول الشعراء ، ج1/ ص : 21 .
- 14 - السيوطي ، المزهر ، ج 1/ ص : 59 .
- 15 - الفاسي الفهري ، اللسانيات واللغة العربية ، ص : 406 .
- 16 - ينظر عبد المالك مرتاض ، السمة والسيميائية ، مجلة تجليات الحداثة ، جامعة وهران - الجزائر ، 1993م ، ع 2 ، ص : 15 .
- 17 - ينظر عبد الكريم مجاهد ، علم اللسان العربي ، ص : 14 .
- 18 - جلال الدين المحلي وجلال الدين السيوطي ، تفسير الجلالين ، إعداد ومراجعة الشيخ محمد فهمي أبو عبيه وآخرون ، دار الكتاب العربي، بيروت - لبنان ، 1424 هـ .
- 19 - سورة النحل ، الآية : 103.

- 20 - لم يغفل ابن منظور (وهو العالم اللغوي والنحوي والمعجمي) الإشارة إلى كثير من الظواهر النحوية والصرفية واللغوية التي أولتها اللسانيات الحديثة أهمية كبيرة ، إلى جانب العناية بالقراءات القرآنية ، مما يفيد الدراسات الصوتية الحديثة ، وجوانب علم الدلالة
- 21 - ابن منظور ، لسان العرب ، م س ، مادة (لسن) . ❖ - العكم : هو العدل الذي يوضع فيه المتاع كالخرج .
- 22 - ابن سيده ، المخصص ، ط1 ، بيروت - لبنان ، ج 1 / ص : 14 .
- 23 - ابن خلدون ، المقدمة ، 1055 وما بعدها .
- Hachette , dictionnaire de la langue française , édition Algérienne ,
24 - 1993 , p : 935.
- 25 - عبد الصبور شاهين ، علم اللغة العام ، م س ، ص : 29 .
- 26 - ينظر علم اللغة العام لدى سوسير نفسه ، ترجمة يوسف عزيز ، ص : 253 .
- 27 - عبد المالك مرتاض ، مفاهيم سيميائية بمصطلحات بلاغية ، مجلة سيميائيات ، جامعة وهران - الجزائر ، 2006م ، ع 02 / ص : 21 .
- 28 - السيد أحمد الهاشمي ، جواهر البلاغة ، المكتبة العصرية ، بيروت - بنان ، 2003م ، ص : 309 . ❖ - سورة الحشر ، الآية : 19 .
- 29 - المرجع السابق ، ص : 309 .
- 30 - عبد المالك مرتاض ، الأدب الجزائري القديم ، دار هومة ، الجزائر ، 2001م ، ص : 120 .
- 31 - ينظر عبد المالك مرتاض ، مفاهيم سيميائية بمصطلحات بلاغية ، م س ، ص : 05 .
- 32 - عبد المالك مرتاض ، ألف ليلة وليلة - تحليل سيميائي تفكيكي - لحكاية حمال بغداد ، ديوان المطبوعات الجامعية ، الجزائر ، ص : 96 .
- AJ Greimas, J Courtes , sémiotique dictionnaire raisonné de la
33 théorie du langage, hachette, Paris , p : 345.
- 34 - Hachette, dictionnaire de la langue française, sémiologie.
- 35 - عبد المالك مرتاض ، بين السمة والسيميائية ، مجلة تجليات الحداثة ، جامعة وهران - الجزائر ، 1993م ، ع 2 / ص : 13 .
- 36 - Hachette , dictionnaire de la langue française , sémiologie .
- 37 - ينظر يوسف وغليسي ، إشكاليات المنهج والمصطلح في تجربة عبد المالك مرتاض النقدية ، م س ، ص : 312 وما بعدها .

- ³⁸ - Hachette ,dictionnaire de la langue française , métalangage .
- 39 - ينظر يوسف وغليسي، إشكاليات المنهج والمصطلح في تجربة عبد المالك مرتاض النقدية، م س، ص : 315.
- 40 - عبد المالك مرتاض، في نظرية الرواية - بحث في تقنيات السرد ، مجلة علامات ، جدة - السعودية ديسمبر 1998م ، ص: 211.
- 41 - المرجع السابق ، ص : 212 .
- ⁴²-Hachette , dictionnaire de la langue française , icône .
- 43 - عبد المالك مرتاض، (أ ي) دراسة سيميائية تفكيكية لقصيدة أين ليلالي ؟ لمحمد العيد آل خليفة ، ديوان المطبوعات الجامعية، الجزائر، 1992م، ص : 79
- 44 - عبد المالك مرتاض، (أ ي) دراسة سيميائية تفكيكية، م س، ص : 60 .
- 45 - عبد المالك مرتاض، مقامات السيوطي - دراسة- منشورات اتحاد الكتاب العرب، دمشق- سوريا ، 1996 ، ص : 44 .
- 46 - مولاي علي بوخاتم، الدرس السيميائي المغربي، ص : 131 .
- 47 - عبد المالك مرتاض، شعرية القصيدة - قصيدة القراءة ، تحليل مركب لقصيدة أشجان يمانية، دار المنتخب العربي، بيروت - لبنان، 1994م، ص : 24 .
- 48 - عبد المالك مرتاض، شعرية القصيدة - قصيدة القراءة ، ص : 43 .
- 49 - عبد المالك مرتاض، تحليل الخطاب السردى، ص : 161 .
- 50 - عبد المالك مرتاض، شعرية القصيدة - قصيدة القراءة ، ص : 37 .
- 51 - عبد الملك مرتاض، مقامات السيوطي، م س، ص : 43 .
- 52 - مولاي علي بوخاتم، الدرس السيميائي المغربي، م س، ص : 123 .
- 53 - أحمد حساني، المصطلح اللساني في التراث، مجلة المصطلح، ع : 01 ، جامعة أبو بكر بلقايد، تلمسان- الجزائر، 2002م، ص : 84 .
- 54 - أحمد حساني المصطلح اللساني في التراث ، م س ، ص : 88 .
- 55 - الجاحظ ، البيان والتبيين ، ج 1 / ص : 140 .
- 56 - عبد القاهر الجرجاني ، أسرار البلاغة ، ص : 325 .
- 57 - المرجع السابق ، ص : 12 .
- 58 - جورج مونان، مفاتيح الألسنية، ترجمة الطيب بكوش، منشورات الجديد ، ط 1 ، تونس 1981 م ، ص : 31 .
- 59 - مولاي علي بوخاتم، الدرس السيميائي المغربي ، م س ، ص : 125 .

- 60 - عبد المالك مرتاض، مفاهيم سيميائية بمصطلحات بلاغية، م س ، ص : 04 .
- 61 - عبد السلام المسدي، الأسلوب والأسلوبية، الدار العربية للكتاب، تونس 1977م ، ص : 158 .
- 62 - عبد المالك مرتاض، مفاهيم سيميائية بمصطلحات بلاغية، ص 05 .
- 63 - الزمخشري، الكشف عن حقائق غوامض التنزيل وعيون الأقاويل في وجوه التأويل ، ص : 441 .
- 64 - عبد المالك مرتاض، مفاهيم سيميائية بمصطلحات بلاغية ، ص : 06 .
- 65 - المرجع السابق ، ص : 06 .
- 66 - المرجع السابق نفسه ، ص : 06 .
- 67 - Hachette ,dictionnaire de la langue française , (écart) .
- 68 - عبد المالك مرتاض، مفاهيم سيميائية بمصطلحات بلاغية ، م س ، ص : 06 .
- 69 - بن عبد ربه الأندلسي، العقد الفريد، تح أحمد أمين وآخرون، القاهرة- مصر 1949م ، ج 1 / ص : 19 .
- 70 - عبد المالك مرتاض، مفاهيم سيميائية بمصطلحات بلاغية ، م س ، ص : 07 .
- 71 - المرجع السابق ، ص : 08 .
- 72 - المرجع السابق نفسه ، ص : 17 .
- 73 - المرجع السابق، ص : 09 .
- 74 - ابن منظور، لسان العرب ، م س ، مادة (مول) .
- 75 - عبد المالك مرتاض، مفاهيم سيميائية بمصطلحات بلاغية ، م س ، ص : 10 .
- 76 - المرجع السابق ، ص : 21 .
- 77 - المرجع السابق نفسه ، ص : 14 .
- 78 - المرجع السابق ، ص : 25 .
